

الى رجال التعليم :

نقد نظام التعليم في مصر

لرؤساء ساطع الحصرى بك

مدير دار الآثار العربية بالبراق

بذكر القراء أن المربي الكبير الأستاذ ساطع بك الحصرى كان قد وفد إلى القاهرة في العام الماضي ليطالع على الأنظمة التعليمية المصرية فزار المدارس وقرأ النماذج ثم لاحظ على نظام التعليم عندنا ملاحظات قيمة لم يرد أن ينشرها يومئذ لصفته الرسمية في وزارة المعارف العراقية . فلما انتقل منها إلى دار الآثار رأى أن يذيع هذه الملاحظات في مصر عن طريق الرسالة ليطالع عليها القارئون على شئون التعليم فيها ثم ناقضونها . وهذه فرصة حسنة يتيحها الأستاذ لرجل التعليم ليأدله الرأي فيها يجب أن يكون عليه نظم التعليم في عهد مصر الحديث . (الرسالة)

— ١ —

لعل أبرز المآخذ التي تستلفت أنظار الباحث المحايد عند ما يلتقي نظرة انتقادية عامة على نظام التعليم في مصر هو : حرمان المدارس الابتدائية من أساس متجانس متين ، فإن الدراسة في هذه المدارس لا تتبدى ببداءة ، الإعمار المدرسية ، كما هو شأن المدارس الابتدائية في سائر أنحاء العالم ، بل تتبدى بعد ذلك بسنة أو سنتين ، لأن المدرسة الابتدائية لا تقبل إلا من يعرف القراءة والكتابة . وهذه المعرفة لا تيسر بطبيعة الحال إلا بالتخرج في رياض الأطفال ، أو بالدراسة في الصفوف الأولى من المدارس الأولية مدة سنتين أو أكثر ، أو بالدراسة في المنزل مدة غير محدودة . وإذا تركنا الدراسة المنزلية جانباً ، ولاحظنا الفروق العظيمة الموجودة بين أساليب التعليم والتربية المنبثقة في رياض الأطفال من جهة ، وفي المدارس الأولية من جهة أخرى ، اضطررنا إلى القول بأن أسس المدارس الابتدائية في مصر بعيدة عن التجانس ، بعداً كبيراً . وإذا شهبنا تلك المدارس بالمباني ، نستطيع أن نقول : إنها ليست مشيدة على الأرض المتينة ، بل قائمة على دعائم غير متجانسة ، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً من حيث الطول والعرض والعمق والمتانة .

لهذا السبب ، نشاهد بين طلاب الصفوف الأولى من المدارس الابتدائية فروق عظيمة ، من حيث العمر والمعلومات والقابلية العقلية ومن المعلوم أن عدم التجانس بين الطلاب ، من أخطر الآفات التي تعترض نظام التعليم الجمعي ، ومن أكبر المشاكل التي تعقد مهمة المعلمين الذين يقومون بتعليم عدد غير قليل من الطلاب في فصل واحد . ووقت واحد . ولذلك تجد رجال التربية في البلاد

العربية يبحثون عن ألف طريقة وطريقة لزيادة التجانس في الصفوف ويسعون دائماً للتأليف بين ضرورات التعليم الجمعي وبين مطالب الفروق الفردية .

وأما نظام التعليم الابتدائي المرعى في مصر - فبعكس ذلك - يزيد هذه المشكلة زيادة هائلة . لأنه يضيف إلى الفروق الطبيعية فروقا اصطناعية ناشئة عن اختلاف نتائج الدراسة السابقة .

إن النخاس من مضار هذه المشكلة ليس من الصعوبة بمكان . إذ يكفي لذلك تغيير النظام الحال على أساس : إتمام بناء المدرسة الابتدائية بإصبال أسسها إلى الأرض القوية ، وجعلها مؤسسة تعليمية قائمة بنفسها ، تتعهد بتعليم وتربية الأطفال منذ بدء أعمارهم المدرسية ، دون أن تتكفل على مؤسسات أخرى في تعليم القراءة والكتابة .

— ٢ —

ومن المآخذ البارزة التي تستلفت الأنظار في نظام التعليم في مصر هي : اصطباغ رياض الأطفال بصيغة مدرسية ، واضحة .

ومن المعلوم أن رياض الأطفال تعتبر - عادة - بمثابة معاهد تربية قبل مدرسية ، () preschool ، تتعهد بتربية الأطفال - وحتى وصولهم إلى الاثنان المدرسية - . بالأساليب الملائمة للأعمار التي تقدم تلك الاثنان بوجه عام .

وأما نظام التعليم المتبع في مصر فينظر إلى رياض الأطفال ، نظره إلى المدارس ، تماماً . فإن التعليمات الرسمية المتعلقة بها تحمل عنوان : منهج الدراسة . ومدارس رياض الأطفال ، وتوصل عدد الدروس ، في الأسبوع إلى الأربعة والثلاثين ، وتكرر كلمات الدروس ، ودراسة ، ودرجات الدروس ، ودرجات أوقات الدروس ، على الدوام ، حتى إنها تنظر إلى التهذيب ، أيضاً كدرس من الدروس ، وتعين : الغرض من تدريس التهذيب للأطفال ، وتبين كيف يجب أن تلقى عليهم دروس التهذيب ، وكيف يجب أن يجري تدريس التأمل في مشاهد الطبيعة .

إن حركة التطور والتقدم السريعة التي حصلت في ساحة رياض الأطفال منذ بداءة القرن الحالي - ولا سيما ما كان منها بسبب آراء وأعمال دكرولي ومونتسوري - انجذبت على الدوام نحو وتخليص رياض الأطفال من الصيغة المدرسية . واعتقد أن أسباب بقاء رياض الأطفال في مصر بعيدة عن هذا الاتجاه ، بهذه الصورة ، تعود أولاً وبالذات إلى كيفية تكوين المدرسة الابتدائية . إذ من الطبيعي أنه عند ما يطلب من رياض الأطفال أن تهيم الطلاب إلى المدارس الابتدائية القائمة على الطراز الذي ذكرناه آنفاً ، ويحتم عليها تعليم القراءة والكتابة والحساب بالقدر الذي تتطلبه المدارس الابتدائية

(١) متحونة من (قبل) و (مدرسية)

الحالية - بتعمير جعلها «دور تربية» أكثر من جعلها «بيوت تدريس» ، بل يصبح من الضروري جعلها «مدارس من نوع خاص» .
إن التعديل الذى يدخل على أسس المدارس الابتدائية - وفقا للاقتراح الذى أدرجناه فى الفقرة السابقة - يفسح فى الوقت نفسه مجالاً واسعاً لإصلاح رياض الأطفال وفقاً للنزعات التربوية الحديثة ، ولجعلها بمثابة «معاهد تربية قاعدية» - كما تقتضيهما النزعات المذكورة - أكثر من «مدارس إعدادية للدارس الابتدائية» كما هى الحال الآن

- ٣ -

غير أن أهم المآخذ التى تؤخذ على نظام التعليم فى مصر ، هو الاختلاف العظيم الموجود بين الدراسة الابتدائية وبين الدراسة الأولية ، إذ أن مناهج هذين النوعين من المدارس المصرية يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كلياً ، ولا توجد بينهما رابطة منظمة تسهل انتقال الأطفال من الواحدة للأخرى ؛ حتى ولا يوجد تماثل نسبي يساعد على تقريب تأثيراتهما على نفوس الأطفال على الأقل .

لنفرض أننا أخذنا جدولين يبين كل واحد منهما خطة الدراسة المتبعة فى كل واحد من هذين النوعين من المدارس ؛ واستبدلنا فيها تعبير «اللغة العربية» بتعبير «اللغة اليتية» ، أو «لغة الأم» ؛ وعرضنا الجدولين على أحد المربين دون أن نخبره بماهيتيهما . فلا شك عندنا فى أنه عند ما يقارن هذين الجدولين بعضهما ببعض ، سيظن أن كل واحد منهما يعود إلى مملكة ، وسيجزم بأن هاتين المملكتين مختلفتان اختلافاً كلياً من حيث الحاجات والتقاليد والنزعات . وإذا أخبرناه بأن هذين الجدولين يعودان إلى مملكة واحدة ، فيقول بدون تردد «أذن يجب أن يكونا عائدتين إلى دورين مختلفين من الأدوار التى مرت عليها حياة تلك المملكة» ، وسيظن أن هذين الدورين يتفصل بعضهما عن بعض بتطورات خطيرة وانقلابات عظيمة ؛ وعلى كل حال سوف لا يتصور قط أن هذين الجدولين يمثلان مناهج الدراسة المتبعة فى نوعين من المدارس التى تربي أبناء جيل واحد فى مملكة واحدة بل فى مدينة واحدة .

وفى الواقع تصوروا جارين بسكنان فى محلة واحدة ، وافترضوا أن لكل منهما طفلاً فى التاسعة من العمر ، غير أن الأول قد أرسل ابنه إلى مدرسة ابتدائية فى حين أن الثانى أرسل ابنه إلى مدرسة أولية أو إلى مكتب عام ؛ ثم قارنوا بين الدروس التى سيتلقاها كل واحد منهما ، تجدوا أن الأول سيخصص ستة فى المائة من أوقات دراسته لتعليم الدين والقرآن ، فى حين أن الثانى سيخصص ثمانية وعشرين فى المائة من مجموع أوقات دراسته لنفس الموضوع ، كما أن هذه الأوقات ستصل إلى أربعين فى المائة إذا ذهب الطفل إلى أحد المكاتب العامة ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الأول سيخصص خمس مجموع

أوقات دراسته لتعليم اللغة الانكليزية ، وسيبدأ بدراسة تلك اللغة قبل أن يبدأ بتعليم قواعد اللغة العربية نفسها ؛ فى حين أن الثانى سوف لا يتعلم شيئاً منها طول مدة دراسته المقبلة . وعلاوة على كل ذلك ، فإن الأول سيخصص أكثر من ربع أوقات دراسته للرسم والاشغال البدوية والتربية البدنية ، فى حين أن حظ الثانى من هذه التمارين والاعمال سيكون شبيهاً بالعدم .

وإذا لاحظنا مدى تأثير هذه الفروق العظيمة على عقلية الأطفال ونفسياتهم ، وجب علينا أن نقول : إن نظام التعليم المتبع فى مصر لا يساعد على تكوين «جيل موحد الشعور» .

كان يوجد فى البلاد الغربية أيضاً بعض الفروق بين مناهج الفصول الابتدائية التابعة للدارس الثانوية وبين مناهج المدارس الابتدائية المستقلة عنها ، غير أن تلك الفروق كانت «طفيفة جداً» بالنسبة إلى الفروق الهائلة التى تشاهد بين مناهج المدارس الابتدائية والأولى فى مصر . مع هذا ، قام علماء التربية ورجال السياسة فى تلك البلاد بحملات عنيفة ضد تلك الحالة ، وأثاروا حولها أبحاثاً دقيقة ومناقشات شديدة ، انتهت فى معظم البلاد بتوحيد أسس الدراسة الابتدائية وفقاً لمبدأ «المدرسة الموحدة» ، *école unique* ذلك المبدأ الذى يلخص فى عبارة «شعب واحد ، مدرسة واحدة» .

أفليس من الغريب جداً ألا تبدأ فى مصر إلى الآن أية حركة ضد هذا النظام ؟

إننى لا أجهل بأنه نشأت فى مصر - منذ مدة - حركة مباركة تطالب بتوحيد التربية والتعليم ، وتعمل فى سبيل ذلك بنشاط وقوة . غير أنى ألاحظ فى الوقت نفسه أن أغراض تلك الحركة المباركة وخطتها لم تعد حدود «التوحيد» بين المدارس الأميرية والمدارس الحرة ؛ فى حين أتى اعتقاد اعتقاداً جازماً بأن هذه الحركة لا يمكن أن تثمر ثمرة الكافية ، إذا لم تسع لتوسيع نطاق عملها فتشمل فى الوقت نفسه «توحيد أسس الدراسة فى المدارس الأميرية نفسها» .

إن الفرق العظيم الموجود بين مناهج المدارس الابتدائية والأولى كان من أول القوائم التى استوقفت نظرى فى نظام التعليم فى مصر عندما زرت مدارسها للمرة الأولى سنة ١٩٢١ قبل مجئى إلى العراق ؛ واستمرار هذه الفروق بدون معارضة أو انتقاد كان من أهم ما استلفت نظرى عند زيارتي الثانية لها سنة ١٩٣٦

لقد عرضت ملاحظتى هذه - عند زيارتي الأولى على وزير المعارف بكتاب خاص . وعند ما قدمت العراق ، وجدت أن السلطة الانكليزية كانت قد نقلت هذا النظام إلى هذه البلاد أيضاً ، وكانت قد أحدثت مدارس أولية تختلف بمنهجها عن المدارس الابتدائية . وأول الاعمال التى أقدمت عليها - عند ما توليت إدارة المعارف العامة هنا - كان القضاء على ذلك النظام ؛ فقد وحدت برامج الدراسة فى السنين

إثنى كثيرا ما تصفحت التقارير التي قدمها الخبراء الفنيون الذين استخدمتهم الحكومة المصرية للاسترشاد بأرائهم في إصلاح معارفها، وأردت أن أطلع على رأيهم في هذه الثانية، ولو من خلال التقارير التي قدموها؛ وعلت أنهم لاحظوا هذه الثانية؛ غير أنهم لم يدوا أى اعتراض عليها. ويقلب على ظنى أن السبب في ذلك كان اعتقادهم بأن هذه الأمور تتعلق بتقاليد مصر ونزعاتها التي لا يجوز المناقشة حولها. لأنهم قسموا النظام التعليمي في مصر إلى قسمين، عنونوا أحدهما بعنوان المدارس التي على النمط الأوربي، واكتفوا بأبداء بعض الملاحظات لإصلاح كل واحد من هذين النظامين على حدة: غير أنى أرى من الضروري أن تسأل قبل كل شيء: هل يجوز أن يكون في مملكة واحدة نظامان من المدارس، أحدهما على نمط أوربي، والثاني على نمط محلي أو غير أوربي؟

أنا أعتقد أن ذلك مما لا يجوز بوجه من الوجوه. فعلى مصر أن تأخذ من الأنماط الأوربية ما يلائم حالاتها وحاجاتها، ثم توجد نمطا قويا خاصا بها. فلا يجوز لها مطلقاً أن تؤسس صنفا من المدارس على النمط الأوربي، بجانب صنف آخر يبق على نمط غير أوربي. وإذا كان لوجود هذين النطين بعض المستوجبات والمبررات في بدء تأسيس المعارف، فلا يمكن أن يكون لبقائهما الآن أى موجب يعد أن وصلت مصر إلى هذه المرحلة من مراحل نهوضها، وبعد أن صارت تحكم نفسها بنفسها...

يظهر أن مصر ألقت هذا النظام المزدوج منذ مدة طويلة. ولعل هذه الآفة الطويلة كانت من أهم الأسباب التي حالت دون اقتناء مفكرى مصر إلى أضرار هذا النظام.

غير أنى أعتقد أن إعادة النظر في أسس النظام التعليمي في مصر على مبدأ «توحيد أسس الدراسة» أصبحت من أهم الإصلاحات الضرورية لمصر في بدء عهد نهضتها السياسية والاجتماعية الحديثة. فإن بقاء نظام التعليم على ما هو عليه من الثنائية dualité يكون خطرا على وحدة الشعور التي يجب أن تسود البلاد.

قد يقول قائل: لاخوف على وحدة الشعور في مصر أبدا، لأن هذه الوحدة تجلت بأجلى مظاهرها خلال كفاح المصريين الطويل ضد الحماية والاستعمار؛ غير أنى أقول بأن «وحدة الشعور» التي عملت عملها خلال ذلك الكفاح كانت «وحدة» من نوع خاص، تكونت تجاه عدو مادي وخارجي، استمر في إرهاب قفوس الجميع منذ مدة تنف على نصف قرن. أما الآن فستدخل مصر في حياة كفاح جديدة تتطلب النضال في سبيل إصلاح القفاص الداخلية، وضمان التقدم في جميع مناحى الحياة.

إن وحدة الشعور التي تكونت وتجلت خلال الكفاح السياسى

الأربع الأولى توحيدا تاما، وجعلت الدراسة الأولية منطقة على دراسة السنين الأربع الأولى من المدارس الابتدائية كل الانطلاق.

أقدمت على ذلك - حينئذ - تحت تأثير عقيدة تربية اجتماعية، قبل أن أرى مفعولها في كثير من البلاد بصورة فعلية. فإن مبدأ المدرسة الموحدة، كان قد دخل حديثا في صلب دستور (وإعمار) في ألمانيا؛ غير أن معظم البلاد الأوربية كانت قد ظلت بعيدة عن الأخذ به، كما أن جميع البلاد الشرقية - بما فيها تركيا - كانت معرضة عنه. حغير أن التطورات التي حدثت في نظم التعليم العام في تلك البلاد وغيرها - منذ ذلك التاريخ - أثبتت تماما أنى كنت مصيبا في ذلك العمل كل الإصابة.

أفلا يجب على مصر أيضا أن تقوم بعملية مماثلة لتلك، وتعيد النظر في أسس نظامها التعليمي على مبدأ «توحيد أسس الدراسة»؟

— ٤ —

من الأمور التي يجب أن تلاحظ بوجه خاص، أن الفروق العظيمة التي أشرنا إلى وجودها بين مناهج المدارس الابتدائية ومناهج المدارس الأولية كانت تنمى بفروق ماثلة بين معاهد المعلمين الذين يتولون شؤون التربية والتعليم في كل نوع من نوعى هذه المدارس، فإن معلمى المدارس الأولية يتخرجون في دور المعلمين الأولية، حين أن معلمى المدارس الابتدائية يتخرجون في معهد التربية. غير أن الفروق الموجودة بين دور المعلمين ومعهد التربية في مصر، لم تكن من نوع الفروق الاعتيادية التي تنتج من اختلاف درجة التحصيل العام، أو أسلوب الاستعداد المبنى، لحسب، بل هي من نوع الفروق العظيمة التي تنتج من اختلاف نوع الدراسة ونزعتها، و«نوع الثقافة التي تولد منها». وذلك لأن دور المعلمين الأولية تستند على المدارس الأولية، فالمدارس الأولية الراقية، وتستمر على خطتها ونزعاتها، في حين أن معهد التربية يستند على المدارس الابتدائية، والثانوية، ويستمر على خطتها ونزعاتها.

إثنى لا أود في هذا المقام أن أتطرق إلى خطط كل من معهد التربية ودور المعلمين الأولية وهماجهما وأبدى رأي في هذه الخطط والمناهج نفسها، بل أود أن ألقت الأنظار إلى الفرق العظيم الموجود بين نوع الثقافة واتجاه العقيلة التي يستند عليها ويصل إليها كل واحد منهما. وأقول: إن الفروق العظيمة التي شرحنا وجودها بين مناهج الدراسة الابتدائية والأولية تشتد وتقوى بصورة هائلة خلال تطبيق تلك المناهج، من جراء الهوة العميقة الموجودة بين معاهد معلمى المدارس الابتدائية والأولية.

ولهذا السبب نصل «ثنائية التربية والتعليم في مصر» إلى أقصى الدرجات التي يمكن أن يتصور الإنسان وجودها في مملكة واحدة